

المحاضرة الثامنة في مادة السيرة النبوية

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب بن عمير عاد إلى مكة في موسم العام التالي، ومعه جمع كبير من مسلمي المدينة، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين. قال محمد بن اسحاق يروي عن كعب بن مالك: فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، نمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نساننا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي. قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، فتكلم القوم وقالوا: خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم".

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما تمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أي السلاح كله) وورثناها كابرا عن كابر». فاعترض القول- والبراء يتكلم- أبو الهيثم بن التيهان فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها- يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟». فتبسم رسول الله ﷺ عليه وسلم ثم قال: «بل الدمّ والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم»

وقد كان قال رسول الله ﷺ عليه وسلم: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلما تخيّرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي».

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البراء بن معرور ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك. فلما بايعنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ارفضوا إلى رحالكم»، فقال له العباس بن عباد بن نفة: «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فانا»، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعنا إلى مضاجعنا، فمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش، فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم». فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله: ما كان من هذا شيء وما علمناه. وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: «وبعضنا ينظر إلى بعض». ونفر الناس من منى، فتحرى القوم الخبر فوجدوا أن الأمر قد كان. فخرجوا في طلبنا فأدركوا سعد بن عباد بأذخر (1)، والمندر بن عمرو - وكلاهما كان نقيبا - فأما المنذر فأعجز القوم فهرب، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجبهته، وكان ذا شعر كثير. قال سعد: فو الله إنني لفي أيديهم يسحبونني، إذ أقبل إليّ رجل ممن كان معهم، فقال: «ويحك.. أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟» قلت: «بلى والله، لقد كنت أجير لكل من جبير بن مطعم والحارث بن أمية تجارهما وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي»، قال: «ويحك فاهتف باسمهما»، قال ففعلت، فجاء مطعم بن عدي والحارث بن أمية فخلصاه من أيديهم».

قال ابن هشام: «وكانت لبيعة الحرب حين أذن الله لرسوله في القتال شروطا سوى شرطه عليهم في بيعة العقبة الأولى. كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحرب، فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة».

قال عباد بن الصامت: «بايعنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيعة الحرب، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم». وكانت أول آية نزلت في الإذن بالحرب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تبارك وتعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (2)

(1) أذخر موضع قريب من مكة.

(2) سيرة ابن هشام، ومسند الإمام أحمد، والطبري، والعمدة في كل ذلك على ابن إسحاق عن معبد بن كعب بن مالك.